

١٥ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكل كلية العلوم

بستور Pasteur

مسألة حديثه

وصل الفأنت : ذهب بستور إلى شرق فرنسا يبحث فساد الخمر فأصلحها ، ثم ذهب إلى أواسط فرنسا على نداء الملايين واستأنثهم فأصلح ما فقد من صناعة الخمر . وما كاد يستقر في مصله يباريس حتى جاء القدر يدق بابه ، جاءه أستاذه القديم « دوماس » يتطبع لدود انقر المريف في جنوب فرنسا

- ٦ -

فأجاب دوماس : « إن إقليم الحرير في الجنوب هو مسقط رأسي ، وقد حضرت توأ من هناك . وقد رأيت ، ويا هول ما رأيت ! رأيت بلدى المسكين ، قريبي « ألياس » المنكودة ، تلك البلاد التي كانت تربة بالأسس ، زاهية بشجر التوت حتى أعموة الشجر الذهبي ، تلك البلاد أصبحت عمراء بلقما ، وتلك الميراث الخضر أصبحت غبراء ذابلة ، وأهلها وهم أهل أصبحوا لا يجدون القوت . وكان صوت الشيخ فيه حزن وضيق حتى كاد يتندى بالدمع وكان بستور يقدّر نفسه ويضمها فوق الرجال ، وكان قليل

البعيدون يقيناً ، وبكروا من أجله طويلاً . على أن عمل الكمالين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى في سلسلة مصنوعة ، والخطوة الأولى في خطة موضوعة . ويمتد بعض المتذريين بأنه كان لابد للمهضة الأخيرة من جمهورية ، وكان لابد للجمهورية من إلغاء الخلافة ، وهذا عذر أشبه بالذنب . ويمتد آخرون بأن الصلة بين الروس والترك وحاجة هؤلاء إلى معونة أولئك اضطرتهم إلى إلغاء الخلافة ، فهل يرضى الكالبيون أن يمدّ عملهم في الخلافة وما بعدها خطة أملاها الروس عليهم ؟ ما أحسبهم يرضون من أسدقائهم أن يفتقروا هذا الموقف ليدافعوا عنهم : وهذا بمدّ لا يخفف المصيبة التي أصابت المسلمين بإلغاء الخلافة

عبد الرههاب عزام

- له بقية -

التقدير للخير ، إلا أنه حفظ في قلبه إجلالاً خاصاً لدوماس . واعتزم أن يبذل المعونة لهذا الأستاذ الشيخ الحزين . ولكن كيف ؟ فبستور في هذا الوقت لم يكن يستطيع على الأرجح أن يميز دود القز من دود الأرض . بل لقد حدث بمس ذلك الوقت أنهم أعطوه شرنقة حرير فرفمها إلى أذنه وهزها وصاح : « ما هذا ! كأن داخلها شيء ! » . جهل مطبق بالشرانق والدود

وكغيره بستور السفر إلى جنوب فرنسا ليفحص مرض هذا الدود ، لأنه كغيره أن يخيب ، والخيبة كانت أقبض الأشياء إلى نفسه . ولكن الجميل فيه أنه برغم كبريائه ، وبرغم اعتداده الرذول بنفسه ، استبق من صباه حبّ الطفل واحترامه لعمله القديم . فقال لدوماس : « أنا ذا طوع يدك ، قرني بالذي تريد ، وارم في حيث شئت من الأرض »

وحزم أدوانه ومكرسكوبانه ، وحزم ثلاثة أعوان نشيطين من خلصائه ومريديه ، وحزم كذلك أولاده ، ومدام بستور - تلك المرأة الصبور التي لم تكن تشكو أبداً - وسافر بهذه الجمولة كلها إلى حيث الوباء يفتك بالملايين من دود القز ، ويفقر الألوف من الخلق في جنوب فرنسا . وبلغ « ألياس » فأخذ يتعلم هناك أن دودة الحرير إن هي إلا دودة كالديدان تغزل حول نفسها ثوباً من الحرير يُعرف بالشرنقة ، وأنها تتحول إلى يرقة داخل الشرنقة ، ثم إلى فراشة ترفض ثوبها الحريري فتخرج عنه فتتسلق الشجر وتبيض البيض ، وهذا يتفقس في الربيع التالي عن جيل جديد من دود جديد . واستاء رعاة الدود من جهله الفاضح . وذكروا له أن المرض الذي يصيب دودهم يُعرف بالندوة ، وأنه يتراعى على الدود في صورة بقع صغيرة سوداء كالغفل . ووجد بستور هناك مئات من النظريات تدعى كلها تفسير هذا المرض ، ولم يجد من الحقائق الثابتة غير اثنتين ، أولاهما تلك البقع السوداء التي تظهر بظهور المرض ، وثانيتها كبريات صغيرة تتكون داخل الدودة ، صُفرت حتى لا ترى إلا بالمجهر وقبل أن يستقر في مهبطه الجديد ، وقبل أن تستقر أسرته في بيتها الجديد ، كسف عن مجهره وأخذ يمدق في باطن هذا الدود المريض ، ولاسيما في تلك الكبريات ، وخرج سريعاً على أن هذه الكبريات عرض ثابت من أعراض الداء . وبعد خمسة عشر يوماً من حوله بـ « ألياس » دعا إليه أعضاء اللجنة الزراعية وقال لهم : « عندما يجين أو ان اللقاح ، ضموا كل اني وذكر وحدهما ، ثم أتركهما لينسلا وتبيض الأنثى ، فاذا خرج البيض فافتحوا

الذي أصاب الدود . أغراه المجد فغدعه عن العلم ، وأغواء الصيت فصرفه عن الحقيقة ، والحقيقة لا يفوز بها إلا ساخر بالمجد ، عازف عن الصيت ، صبور على العمل ، جلد على التجربة المسئمة الطويلة ودفع اليأس ببعض أصحاب الدود إلى السخرية به والضحك منه ، ودفع بعضهم إلى السخط عليه والنيل منه . واسود بياض ألامه ، وطلب الخلاص في العمل فزاد أهما كما فيه ، ولكنه كان القريب ينهمك في العموم يرجو النجاة ويبني الساحل ، ثم يقف هنيهة بمد إجهاد ليحس الأرض عله يجد قراراً فلا يجد قراراً . واختلط عليه أمر هذا الدود ، فقد كان يقع أحياناً على نساءل تسمع في تسلمها عيدان التوت وتأخذ في نسج شرائق جميلة فيأخذ منها أفراداً للتشريح وينظرها تحت المجهر فيجدها مليئة بتلك الكريبات التي كان يحسبها دليل الداء . وأحياناً أخرى كان يقع على نساءل أخرى من الدود سقيمة لا تكاد تم بالعمود إلى أفرع التوت ، حتى يمترها إسهال غازی ثم تنضم فتعوت ، فهذه أخذ منها أفراداً للتشريح ونظرها تحت المجهر فلم يجد فيها من تلك الكريبات شيئاً . فأخذ يستور بتشكك في اعتبار هذه الكريبات عرضاً من أعراض الرباء . وزاد الطين بلة والحالة سوء أن دخلت الفئران إلى دوده الذي كان يجرى عليه تجاربه فاستطمته فالتهمته ، وأخذ أعوانه الثلاثة الساكنين «ديكو» و « مأيو » و « جرنه » يسهرون الليل بالتناوب على حراسة الدود واصطياد الفئران . وقد يطلع الصباح فلا يكاد ينصرف كل عمله إلى عمله ، حتى تظهر السحب في الغرب قاعة ، فيترك كل عمله ويهرول إلى شجر التوت يغطيه من المطر . وكنت ترى مدام يستور في أعقابهم والأطفال في أعقابها . ويستور التعب المجهود كان لا يستقر في الامساء في كرسية الكبير المريح حتى يأخذ في إجابة رعاة الدود المناكيد الذين خسروا كل شيء باتباعهم طريقته في تصنيف البيض

ومضت أشهر طويلة ثقيلة على هذه الحال ، جاءته بعدها غريزته تحضه على التجريب ، والقدر يمهده سبيل الخلاص ، قال لنفسه : « أنا على الأقل نجحت في الحصول على بعض نساءل من الدود صحيحة سليمة ، فإذا أنا غديتها على ورق التوت بمد تلويثه بافرازات الدود المريض ، فهل يترى تموت هذه النساءل السليمة أم تعرض وتذهب ؟ ! » . وفعل هذا فماتت النساءل يقينا . ولكن غاظه أن التجربة لم تأت بكل الذي حسبه ، فبدل

بطنيهما وأخرجوا من تحت الجلد شيئاً من شحمه ، وانظروا إليه بالمجهر ، فإذا هو خلا من تلك الكريبات فاعلموا أن هذا الزوج من الدود سليم ، وأن بيضه سيفرخ في الربيع المقبل دوداً سليماً ونظر الرقبون إلى المكرسكوب وهو يلمع وقالوا : « نحن الزراع لانعرف كيف نعالج مكنته كهذه . وكان في قلوبهم ارتياب وكان فيها قلة إيمان بهذه البدعة الجديدة ، فمئذ تراجع عنهم بستور العالم ، وتقدم اليهم بستور الداهية الخبير بأهواء الرجال ، فقال لهم : « حسبكم ! حسبكم ! واخفتوا أصواتكم حتى لا يتناقل الناس هذه الفضيحة عنكم ! كيف تعجزون يارجالاً ضخاماً عن استخدام المكرسكوب وعندى في مملى بنت لا يتجاوز عمرها ثمانى سنوات تعالج في لباقة ، وتكشف هذه الكريبات في سهولة ؟ ! » . وقررت اللجنة شراء مكرسكوبات وانصرفوا يعملون بنصائحهم

وذهب بستور يبدل من نفسه الحركة لا تعرف السكون ، فطاف بالمناطق المصابة بالداء يلقي المحاضرات ، ويسأل الأسئلة ، ويملم الفلاحين استخدام المجهز . ثم يعود في رجة الطرف إلى معمله يوجه مساعديه ويزودهم بالنصائح في تجارب لم يستطع هو اجراءها حتى ولا ملاحظتها . ثم يلى في النساء على مدام بستور أجوبة كتابات وخطباً ومقالات ، ولا يطلع الصباح حتى تراه عاد إلى مناطق الرباء يروح عن الزراع البائسين ، ويخطبهم ويبشر فيهم بالفرج القريب

ولكن عاد الربيع بغير الفرج والبشرى . وحاء الوقت الذي يبدأ الدود يصمد فيه إلى أفرع التوت لينسج عليها الشرائق فمجز عن العمود . وقعت الواقعة وخابت الآمال وأنفقت الجهود في غير طائل ! أنفق هؤلاء القوم الطيبون أيامهم على المكرسكوب حتى نال الكلال من عيونهم وأوجع ظهورهم ، يطلبون الفراش السالم الصحيح ليخرج لهم البيض الخالي من تلك الكريبات اللعينة ، فلما حصلوا على هذا البيض السليم ، أو الذي حسبه سليماً ، فرخ نخرج منه دود سقيم ، قل نأوه ، وضعت شهيته فقل طعامه ، وذهب نشاطه ، فأخذ يدور حول عيدان التوت عاجزاً عن تسلق أطرافها ، زاهداً في الحياة وفي أطوارها ، غير آبه لهوى الغواني الحسان في مفرقات الخبز وجوارب الحرير

وارحمته لبستور في تلك الخيبة : جمع المسكين كل هم لتخليص صناعة الخبز مما دهاها ، فسار ودار وخطب ، ولم يبق لنفسه وقتاً يقبض فيه في معمله هادئاً ساكناً يتعرف كنه الداء